

مقدمة:

عرف التخطيط العمراني الحديث ضوابط وقوانين عمرانية، راعت ظروف تسهيل حركة السيارة في أحجامها وكثافتها وعرض الطرق التي تستعملها ، فكانت هي النقطة التي غيرت وأحدثت التحول في مفردات العمران في جميع مقاييسه، منها استعمالات الأرض وتوزيع الخدمات وأنماط النسيج العمرانية لتطغى حتى على أشكال وخصائص المباني التي يتم إنشاؤها، لكن المدن اليوم تم تخطيطها لتراعي حركة السيارة وغاب عن الفكر التخطيطي كل ما يراعي الأبعاد الإنسانية وحاجيات المجتمع حاضرها ومستقبلها، لتوفير البيئة العمرانية.

فكل هذا جعل التنمية العمرانية تقع تحت ضغط وتزايد مستمر في جميع ما هو مفيد للرقى بالتنمية، سواء كانت طبيعية أو مصنعة أثقلت كاهل المدينة بعدة مشاكل أهمها: حسب (الناجم.م و الشريف . ف ، 2006)

أ- ظهور بيئة مريضة: حيث اخترقت التنمية البيئة المحيطة وأخذت منحى آخر كل ما فيه عبث بالبيئة وتجاهل لما تحويه، سواء عن طريق التعدي على الأراضي الزراعية (كقطع الأشجار وحرقتها) أو (إدارة غير مسيرة للنفائات العمومية ،وضع المناطق الصناعية في غير مواقعها،حركة مرورية خانقة ..الخ)

ب- تشويه الهوية المحلية: بظهور أنماط عمرانية لا تمت بصلة لمميزات الهوية العمرانية ،حيث غابت تلك المدن ذات التشكيل العمراني والمعماري الذي أنتجته أفكار وعادات المجتمع بمحليتها بواسطة مواردها الطبيعية المتاحة، وذلك كله جراء التنمية الحديثة التي غاب عنها كل ما هو أصيل وجميل.

ج - استنزاف اقتصادي: وهو ما طغى على جميع الموارد الطبيعية عن طريق الاستهلاك غير المرشد وتبذير الثروات والخدمات، كالكهربائية والمعادن وغيرها.

د- حدوث خلل اجتماعي: وهو ما أحدثه التخطيط الحديث الذي تجاهل التركيبات السكانية في الأحياء السكنية، والحفاظ على الترابط والتكافل والتكامل بين أفراد المجتمع وعلاقتها بالفراغات العمرانية على غرار التعدي الحاصل على القيم الاجتماعية السامية.

ويمكن حصر هذه المشاكل في جملة من الأسباب منها: حسب (الوتار .ف و الوتار .و ، 2008)

- الإلحاح المفرط للإنسان على ضرورة التنقيب على الموارد الطبيعية واستغلالها في الاستثمار.

- التعثر في عملية إدارة النمو، وهو ما جعل العمران دوما يسبق التخطيط، مما يؤثر في عملية الوصول إلى التوجهات العمرانية التي تحقق التنمية.

- انعدام الوعي في أوساط المجتمع، حيث أصبح لا يفقه مشاكله وسبل حلها ومعالجتها.

- انعدام التوازن و التناسب بين الإمكانيات المتاحة، وبين توزيع السكان في الرقعة الجغرافية المعنية.

- الازدياد المذهل في ظاهرة الفوارق الاجتماعية على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي.

- عدم استيعاب المدن للنزوح السكاني بها وسطها من النازحين جراء الهجرة من الريف إلى المدينة.

- الفشل في توفير البنى التحتية ، والخلل في توزيعها.

على إثر هذه المشاكل نشأت عدة توجهات فكرية في ميدان التخطيط العمراني تنادي بضرورة أنسنة المدينة من خلال تخطيط عمراني متمثل في: (مدن صديقة للمشاة ومدن خالية من حركة السيارات ومدن خضراء ومدن إيكولوجية ومدن عضوية)، بالإضافة إلى التفكير في الاستدامة و المحافظة على البيئة من أجل مواجهة المشاكل التي آلت إليها أشكال التنمية العمرانية المعاصرة.

على إثر ذلك ظهرت مناهج وآليات تم استخدامها في عملية التخطيط العمراني ارتقت وتطورت إلى المرونة والحرية في اتخاذ القرارات ،جاء ذلك انطلاقا "من فكر التخطيط الشامل أو التخطيط العام الجامد الذي تطور عنه المخطط الهيكلي لزيادة درجة المرونة و التحرر، ثم جاء التخطيط الإستراتيجي متعدد السيناريوهات ليفتح درجات عالية من المرونة والحرية في اتخاذ القرارات التخطيطية وصياغة خطط وبرامج التنمية العمرانية ،مؤخرا انتشرت فكرة النمو الذكي التي تنادي بتحقيق أعلى درجات المرونة والتحرر والعودة لتقاليد النمو العمراني بالمجتمعات التقليدية". وهذا حسب (اليوسف. م.ص.أ، 1999).

وخلاصة لما سبق فإن جل الأفكار تتمحور حول هدفين أساسيين هما:

- الوصول إلى تخطيط عمراني يهتم بالأبعاد الإنسانية ويدعمها.

- إيجاد الآليات التي تحرر المناهج التخطيطية وتجعلها أكثر مرونة في اتخاذ القرارات.

وعليه فإنه بالعودة إلى المدينة العتيقة وتخطيطها نجد أن الكثير من الباحثين تناولوا تلك الثروة العمرانية الأصيلة التي تزخر بها المدن الصحراوية العتيقة والتعمق في مفرداتها التخطيطية ، حيث أن المتمعن في مفردات وخصائص هذه المدن يلاحظ الدرجة العالية في مراعاة تلك المدن لعوامل البيئية المحلية ، ولعل نسيجها العمراني المتراس سوى دليل على سعي من قام بتخطيط هذه الأخيرة رغبة منه للوصول إلى التأقلم مع البيئة الصحراوية القاسية عن طريق مختلف العناصر التي تكون تلك المدن من جهة وارتباطها بالعوامل الثقافية والاجتماعية من جهة أخرى ، ويحققه من تواصل بين الأجيال المتلاحقة لرسم الهوية العمرانية وتمييزها.

حيث يذهب (يوسف. م.ص.أ، 1999) قائلا: "تميزت عملية نمو و(ليس تنمية) المدينة التقليدي بإدماج عملية التخطيط والتنفيذ في عملية الخلق والابتكار والإبداع، مما كان له أبلغ الأثر في الارتقاء بعمران المدينة وطابعها الفريد النابع من الروح المحلية الكامنة، فارتقت عملية التخطيط العمراني المكتبي ثنائية الأبعاد (وليد القرن الماضي) إلى مرتبة التشكيل العمراني الواقعي ثلاثي الأبعاد في الفراغ والذي ارتجلت فيه بشكل إبداعي أغلب الحضارات. وقد أدى ذلك إلى نوع من (الاستدامة التخطيطية) من خلال استغراق عملية التخطيط بالمدينة التقليدية لفترة زمنية تكاد تساوي نفس فترة

إنشاء المدينة وتوزيع معها، مما أعطى للبنائين (وليس المخططين) الفرصة والاستمرارية وكامل الحرية في إيجاد حلول للمشكلات التخطيطية على الطبيعة وكل منها بمفرده، وذلك من خلال استدامة عملية المتابعة والمعاشية والخلق والإبداع في إطار النسيج العضوي العام للمدينة. وبالرغم من أن تخطيط المدينة التقليدية لم يكن يتم دفعة واحدة بكافة أنحاء المدينة بصورة مخطط عام أو (مسقط شامل كبير) كما كان يحدث في المدينة الإغريقية أو الرومانية أو حتى الباروكية، إلا أن المبدأ الذي حكم ذلك النمو وحده عضويا كان مبنيا على إيجاد نوع ما من التوازنات بين ضرورات وقيود وثوابت المصلحة العامة للمجتمع والتحررية الإبداعية الذاتية للأفراد والمجموعات".

أما الجزائر فكانت ولا تزال إحدى الدول التي تحتوي على أنماط معمارية وعمرانية متنوعة تتميز بكبر مساحتها ومجالاتها المتغيرة في البيئية والمناخ وخصائص المجتمع، وقد أثرت طبيعة الصحراء الجزائرية في إنشاء المدن وتخطيطها العمراني الذي تداخلت فيه الأصالة بالحدثة في البناء والتشييد والتصميم العمراني نتيجة لعدة ظروف تاريخية واكبت تطور تلك المدن، كانت مدينة ورقلة من المدن التي تميزت بطابعها العمراني المتمثل في قصرها العتيق من جهة أو عمرانها الحديث من جهة أخرى والذي تجاوز الموروث وقوانينه وزاحم الصحراء بتخطيطات عمرانية وطنية ومستوردة لا تراعي البيئة المحلية للمنطقة، وذلك نتيجة للتزايد المطرد في عدد السكان الوافدين رغبة في الاستقرار كالبدو الرحل وطلبا للعمل بعد اكتشاف البترول في المنطقة، وهذا بهجرة من جميع أنحاء الوطن. وعليه فإن الاستدامة التخطيطية في العمران باتت من أهم الضروريات الملزمة لإنشاء المدن في ظل الضغوط الممارسة على البيئة، والتي تنذر بضرورة مراجعة أنماط التخطيط والوقوف أمام أسباب التدهور في العمران والاستفادة من تجارب الأسلاف وتعاملهم مع هذه البيئة واستعمال ما هو متاح من تكنولوجيا حديثة لا تؤثر على البيئة ومجتمعاتها واقتصادها على امتداد الأجيال المتلاحقة.

I- إشكال البحث:

إن الاتجاه السريع نحو تعمير المؤسسات البشرية الصحراوية لم يأخذ في الحسبان العديد من الاعتبارات و المتطلبات و الأسس العمرانية الخاصة بتلك التجمعات، رغم أن هذه الاعتبارات ظهرت ملامحها جلية وواضحة في المدن العتيقة الصحراوية القديمة (القصور)، حيث أن جل الدراسات ذات الصلة بالتخطيط العمراني الملائم للبيئة الصحراوية الهشة ركز في اهتماماته على الاعتبارات و المعايير الخاصة بالمباني المنعزلة. وذلك عن طريق التوجيه و مواد البناء العازلة للحرارة، غير أن ما يتعلق بالتخطيط العمراني لم يحض بذلك الاهتمام. (الوتار.س.ع، 2010)

وعلى هذا الأساس ظهرت أصوات تنادي وتركز على أهمية إدراج مفهوم التنمية المستدامة في التخطيط العمراني التي عرفت باهتمامها الأولي بالإطار الإنساني والحفاظ على الموارد غير المتجددة باستخدام أساليب و تكنولوجيا تهدف إلى معالجة المشاكل التنموية، وتحقق التوازن بين احتياجات الإنسان

لاستمرار حياته والمحافظة على النظام البيئي والموارد الطبيعية التي تتوقف عليها حياة الأجيال اللاحقة وتحفظ للمكان طاقاته التنموية من خلال:

- الحفاظ على الموارد الطبيعية.
- توزيع الموارد بين الأجيال بشكل عادل.
- مساعدة البيئة على إعادة وإحياء وتجديد مواردها.
- تقليل المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها الأجيال القادمة.

فالمروور من المدينة التاريخية أو القصر إلى المدينة (الحديثة) تشوبه عدة تساؤلات حول ما أحدثه التعمير على الأنماط التخطيطية، وما برز من ممارسات حضرية بمنطقة مطبوعة بخصوصياتها الصحراوية.

حيث يذهب (خليفة.ع، 2009) بقول " وضعت تخصيصات لأراضي جديدة زاحمت الصحراء و الشطوط و توسعت في كل اتجاه مع دفاتر شروط خاصة و طرق بيع مقننة سجلت ضمن برامج جديدة مختلفة مثل ما وقع في الشمال منذ 15 أو 20 سنة "

فالتطور العمراني الحاصل اعتمد استراتيجيات جديدة في السكنات جاءت بتشجيع من صانعي القرار التخطيطي باعتماد أدوات تعمير مقننة ساهمت في بناء هويات اجتماعية جديدة (Belgudoum.S,2002) استلهمت هندستها من الشمال أو نقلها لأساليب تعمير غربية لا تمت بصلة لخصائص البيئة الاجتماعية والطبيعية للصحراء الجزائرية، التي طالما جاء تنظيم مجالها على أسس من التناغم الاجتماعي و البيئي لأن القصر في واقع الأمر نتاج المراعاة الدقيقة لظروف البيئة الصحراوية و إسقاط لتنظيم اجتماعي واقتصادي في إطار ديني محكم .

إذن فالتدهور الحاصل على مستوى التخطيط العمراني يجبر المخططين على التدخل، خاصة بعد أن صادقت الجزائر على اتفاقيات قمة الأرض في ريوديجانيرو سنة 1992 واعتمادها جدول أعمال القرن 21، وبما أنها كذلك عضو مؤسس في الشراكة الجديدة من أجل إفريقيا (نيباد)، ومدن (نيباد) المستدامة فقد بادرت الجزائر جاهدة بإصدار عدة قوانين رغبة منها في إدراج مفهوم التنمية المستدامة في مجال التخطيط العمراني للحماية والعناية بالبيئة وترقية المشاريع التنموية بما يتوافق مع شروط ومبادئ واهتمامات التنمية المستدامة بجوانبها الرئيسية الاجتماعية والاقتصادية والبيئية للوصول إلى بيئة عمرانية تلبي احتياجات الأجيال.

وبما أن مدينة ورقلة من بين المدن الجزائرية الهامة التي تمتاز بطابعها الصحراوي بخصائصه المحلية فقد حظيت بتطبيق ما ورد من قوانين وأساليب تعمير وفق أدوات التهيئة والتعمير المعمول بها وطنيا وفق ما تملكه من مقومات وموارد وموروث عمراني أصيل، يأتي في مقدمته قصر ورقلة العتيق الذي له جذور تاريخية عميقة بما يحمله من خصائص ومعايير تخطيطية راعت جميع الظروف المحيطة.

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أنه يوجد عدد لا يستهان به من الدراسات والأبحاث التي تتعلق بالتخطيط العمراني المستدام بالمناطق الصحراوية، إلا أنه يصعب الإستفادة منها والاستعانة بها بسبب الخلل في الإطار العام الذي يحدد العناصر وألوية تنفيذها ومن هذا المنطلق نطرح إشكالية بحثنا التي تتمثل في كيفية إدراج عناصر الاستدامة في التخطيط العمراني، هل هي بمعرفة مفردات العمران المستدام فحسب أم تطبيق تلك المفردات. وعلى هذا الأساس يتبادر في أذهاننا السؤال الآتي:

1- هل بإمكان القصر بورقلة أن يكون مصدرا لمعايير مستحدثة من شأنها أن تحقق الاستدامة عند توظيفها في التخطيط العمراني؟

II- فرضية البحث:

من خلال ما سبق فإننا كباحثين وكإجابة مبدئية لمشكل البحث يقضي علينا طرح الفرضية الآتية:

الفرضية:

يمكن للقصر بورقلة بما يحمله من أسس و معايير تخطيطية أن يقدم بعض المعايير المستحدثة يمكن اعتمادها في تخطيطنا العمراني لتحقيق الاستدامة.

هدف البحث:

من خلال معالجتنا لهذا البحث تم تسطير الهدف التالي:

* تحديد ملامح الاستدامة في عمران و عمارة المؤسسات البشرية الصحراوية العتيقة واستنباط معايير تخطيطية مستحدثة يمكن اعتبارها مرجع يساعد كل من المخططين ومتخذي القرار على دمجها في التخطيط العمراني بالمدن الصحراوية الحديثة للوصول إلى تخطيط عمراني مستدام.

III- أسباب اختيار موضوع البحث:

تعتبر التنمية المستدامة مفهوم متشعب وذو أبعاد مختلفة بغايات وأهداف محددة. فهي تضرب بجذورها في كل جوانب الحياة بكل ما يميزها من قيم، عادات، سلوك، أساليب وأوضاع عمرانية منها واجتماعية واقتصادية ونظم سياسية وكذا تقدم علمي. وهي موضوع حديث حاولت كل الاختصاصات دمجها وفق متطلباتها وخصوصياتها من أجل الوصول إلى وضع أفضل فتعددت بها المفاهيم والآراء خاصة في الوقت المعاصر حيث ظهر العديد من الكتاب الذين يحملون فكرة التنمية المستدامة.

حيث ازدادت في الفترة الأخيرة التوجهات والاستراتيجيات التخطيطية في مجال العمران تبحث عن موقع لها في أدبيات التنمية المستدامة وأبعادها الرئيسية للوصول إلى بيئات عمرانية مستدامة خاصة منها الصحراوية من أجل تحقيق التوازن البيئي بها، فتركزت كل التوجهات التخطيطية والاستراتيجيات إلى استقراء واستنباط المفردات المعمارية والعمرانية في البيئات العمرانية الصحراوية العتيقة وجعلها مرجعا لها نظرا لونها تراكم خبرات أجيال متلاحقة عبر أزمنة طويلة أدت إلى تطوير العديد من الحلول والتقنيات للوصول إلى تخطيط عمراني مستدام.

لكن ما نشهده اليوم فهو عكس ذلك كون العمران المعاصر لا يتناول تلك الخصائص والمفردات والمعايير التخطيطية في إنتاج مخططاته العمرانية والمعمارية الحديثة الشيء الذي أنتج بيئات عمرانية تفتقر لمفاهيم التنمية المستدامة وتخلوا من عناصرها المهمة بيئية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية . لذا فإنه من الضروري التوفيق بين ما هو أصيل موروث وما هو مستحدث من تكنولوجيا لاستخلاص معايير مستحدثة لها خصائص تفي بمتطلبات التنمية المستدامة والعمل بآليات محفزة من شأنها دمج عناصر التنمية المستدامة في إعداد وانجاز مخططاتنا العمرانية المستقبلية.

IV- الإطار المرجعي للبحث:

يعتبر تحديد الإطار المرجعي للبحث له أهمية بالغة في تخطيط البحث و الانطلاقة السوية والمضبوطة لمعالمة من خلال الدراسة والتحليل وعليه فإن الإطار المرجعي لهذا البحث اعتمد على الجوانب التالية:

- **أولاً:** المكان هو مدينة ورقلة التي تتميز بطابعها الصحراوي الحار الجاف.
- **ثانياً:** الزمان دراسة نسجين عمرانيين بنفس المكان مع اختلاف زمن الإنشاء متمثلة في - النسيج العتيق: قصر ورقلة.
- النسيج الحديث: حي 460 مسكن بورقلة.
- **ثالثاً:** مجموع الوسائل التي تم الاعتماد عليها في انجاز هذا البحث متمثلة في: (الوثائق والمخططات الحديثة والقديمة ووسائل التحقيق الميداني ،آلات التصوير والقياس...الخ.

V - منهجية البحث:

من اجل إثبات أو نفي الفرضيات وفي سبيل تحقيق الأهداف المرجوة ونظرا لطبيعة الموضوع فإننا اعتمدنا المنهج النظري الذي من خلاله تم استنتاج المفردات المعمارية والعمرانية للتنمية المستدامة للقصور العتيقة الصحراوية .

كما تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي المقارن من خلال رصد وتحليل واقع التشكيل العمراني في العمران التقليدي والمعاصر وتحديد الإيجابيات والسلبيات ، واختيار العناصر والمفردات الأساسية في البيئات الصحراوية المتلائمة مع التنمية العمرانية المستدامة.

كما تم اعتماد المنهج الميداني بواسطة التحقيق من خلال الملاحظة وباستعمال الاستمارة كأداة للتقييم من خلال مدى تطبيق تلك العناصر والمفردات في التخطيطات العمرانية الحديثة الواقعة في البيئات الصحراوية مثل مدينة ورقلة الجزائرية، خاصة أن مدنا لم ترقى بعد إلى المستوى المناسب مقارنة بما وصلت إليه الدول المتقدمة في تطبيق هذه المفردات.

VI - هيكلية البحث:

اعتمدنا في بحثنا هذا منهجية لغرض الكشف عن معايير الاستدامة ضمن التخطيط العمراني العتيق وإسقاطه على التخطيط العمراني الحديث للتوصل إلى ما يجب اعتماده لدمج مفهوم التنمية المستدامة في التخطيط العمراني مستقبلا ، من هذا المنطلق تم وضع هيكلية المذكرة إلى فصل تمهيدي وخمسة فصول على النحو الآتي:

الفصل التمهيدي: تم فيه صياغة إشكالية البحث وتحديدتها مع طرح سؤال البحث وفرضيته وحصر الهدف المرجو من البحث مع توضيح للمنهجية المتبعة فيه.

الفصل الأول: (التخطيط العمراني للمؤسسات البشرية الصحراوية (القصور))

عالج هذا الفصل عوامل نشأة المدن العتيقة الصحراوية وتطورها وكيف تمت هيكلتها وحصر أهم المعايير التصميمية المعتمدة في تخطيطها بيئيا واجتماعيا واقتصاديا.

الفصل الثاني: (التخطيط العمراني المستدام)

تم في هذا الفصل التعرف على مفهوم الاستدامة وعناصرها الرئيسية وأطرها العالمية ، ثم تعرفنا على مفهوم التخطيط العمراني المستدام كوسيلة لتلبية حاجيات الأجيال المتعاقبة عن طريق توضيح متطلباته وماهية المدينة المستدامة وإطارها المفاهيمي مع التعرّيج على تجربة الجزائر في مجال التنمية المستدامة ومحاولاتها دمج هذا المفهوم في التخطيط العمراني من خلال برامجها التنموية.

الفصل الثالث: (الدراسات السابقة وتحديد منهجية البحث)

في هذا الفصل تم طرح بعض الدراسات السابقة التي ترشدنا إلى اختيار منهجية البحث وتحديد وضبط الإطار العام للمنهجية المتبعة في التحليل متمثلة في المنهج الوصفي التحليلي المقارن.

الفصل الرابع: (دراسة مناخية وعمرانية واقتصادية واجتماعية لمدينة ورقلة)

تناولنا في هذا الفصل تقديم عام لمدينة ورقلة ومرآتها التاريخية وجملة المعطيات المختلفة التي تميزها منها الطبيعية، العمرانية، الاجتماعية والاقتصادية.

الفصل الخامس: (إدراج عناصر الاستدامة في التخطيط العمراني للمؤسسات البشرية الصحراوية)

مر هذا الفصل بثلاثة مراحل تحليلية كالتالي:

الأولى منه كانت تحليلا وصفيا لقصر ورقلة العتيق واستنباط أهم الخصائص والمعايير التخطيطية التي تم الاعتماد عليها في إنشاء هذه المؤسسة البشرية العتيقة .

الثانية كانت دراسة تحليلية مقارنة بين المعايير والخصائص المستنبطة من قصر ورقلة مع ما تم اعتماده من معايير تخطيطية في حي 460 مسكن ، وذلك كنسجين مختلفين واحد قديم والآخر حديث في نفس البيئة مع اختلاف الزمن والعوامل الاجتماعية والاقتصادية، عن طريق بناء استمارة موجهة للقصر وحي 460 مسكن واستنتاج الخصائص العمرانية والمعمارية لهما.

الثالثة تم فيها إجراء تحليل وصفي مقارن بين المعايير التخطيطية المستخلصة من لتخطيط قصر ورقلة العتيق مع أسس ونظريات التشكيل العمراني المستدام واستخراج أهم ملامح الاستدامة فيه بالاعتماد على الصور والمخططات والقياسات.

وفي الأخير تم ختم هذا البحث بخلاصة عامة وتوصيات تضمنت:

- تدليل النتائج المتحصل عليها.
 - الإجابة على أسئلة البحث.
 - توصيات البحث وما يمكن أن ينجر عنها من بحوث تكميلية.
- أما نهاية المذكرة فقد احتوت على قائمة المراجع التي تم استخدامها في البحث بطريقة (Harvard) متبوعة بالملاحق.